المقتطف

الجزء الاول من السنة الثامنة عشرة

١ اكتوبر (تشرين ١) سنة ١٨٩٣ الموافق ٢١ ربيع الاول سنة ١٣١١

آمال المشرق

(بمقدمة السنة الثامنة عشرة)

لكلِّ ليل صباح نستضيء به ... فلا تدومُ علينا ظلمة الغسقِ
وربَّما اطبقت سُحْبٌ فما قطرت ... الاَّ كما ينتهي البحران بالعرقِ
وآخرُ الامر في ضيق كأوَّلهِ ... كما نرى الشبه بين الصبح والشفقِ
لا ييأسنَّ مريضٌ من سلامتهِ ... ما دام في جسمهِ شيءٌ من الرمقِ

اذا قابلنا بين احوال المشرق والمغرب في هذه الايَّام من حيث الارتقاء في العلوم والفنون والصنائع على انواعها . واذا دخلنا سفن اهالي المغرب ورأينا ما فيها من العدَد والاجهزة وقابلناها بالسفن التي صنعناها نحن المشارقة غير مستعينين بهم ولا جالبين ادواتها من بلادهم . واذا زرنا معاملهم ورأينا ما تحويهِ من الآلات والادوات وقابلناها بالمعامل التي اقمناها نحن غير مستعينين بهم ولا جالبين موادها من بلادهم . بل اذا جرَّدنا بلادنا من كل ما أُدخل اليها من اوربا من الآلات والادوات والوسائط التي نستعين بها على الاعمال والمعيشة ثم قابلناها وهي على هذه الحالة المجرَّدة بالبلدان الاوربيَّة ولاسيما الراقية منها مراقي الفلاح وقعنا في اليأس والقنوط وقلنا قد قضي علينا ولن نستطيع مجاراة اوربا ابد الدهر

وقد كانت هذه الافكار تخامر نفوسنا كلما فتحنا ساعة ورأينا دقة ادواتها واحكام

صنعها او نظرنا الى آلة بخارية تجر مركبات السكك الحديدية او دخلنا سفينة كبيرة من السفن الاوربية او قابلنا بين بيوت الوطنيين الاصلية ومخازنهم وحوانيتهم وبين بيوت النزلاء من الاوربيين ومخازنهم وحوانيتهم . ولكننا لم نرَ الفرق عظيماً مدهشاً كما رأيناهُ ونحن نطوف في عواصم اوربا ونرى مدارسها ومتاحفها ومشاهدها المختلفة وما اذدخرهُ اهلها من كنوز العلوم والفنون وما وصلوا اليهِ من الدقة والمهارة

هذا واذا لم يطلع الانسان على تاريخ العمران الاوربي ظنَّ لاوَّل وهلة انهُ متصل غير منفصل من ايام الرومان واليونان بل حسب ان ألفي سنة لا تكفي لهذا الارتقاء الباهر بينا نرى عمران الصين مثلاً متصلاً منذ اربعة آلاف سنة وهو لا يذكر الآن في جنب العمران الاوربي ولكنَّ صحف التاريخ تنبئُ بغير ذلك . فان عمران اليونان والرومان الذي بلغ ارقى الدرجات من وجوه كثيرة اندثر منذ الف وخمس مئة سنة او اكثر وباتت ممالك اوربا في ظلام دامس اكثر من الف سنة ولولا النهضة التي نهضتها بعد ذلك لكانت حال شعوبها الآن أحط من حال زنوج افريقية. وعمران اوربا الحالي من حيث الفنون يبتدئُ منذ اربع مئة او خمس مئة سنة ومن حيث العلوم من نحو مئتي سنة فقط

اما الفنون فبقيت امثلتها من عهد اليونان والرومان منتشرة في ايطاليا وغيرها من الممالك الاوربية في الهياكل التي صارت كنائس والاصنام التي جُعلت تماثيل والقصور التي بقيت مساكن للملوك والحصون التي حفظت بها ثغور الممالك فلم يعسر على ابناء العصور الوسطى ان يقلّدوها حالما نسوا ما رسخ في اذهانهم من كراهة اهلها الوثنيين . وساعدهم على ذلك قيام العرب في اسبانيا وجزائر بحر الروم واتصالهم بهم في شرقي اوربا فان عقول العرب ومن دخل في حماهم من امم المشرق لم تكن مقيَّدة بقيود الاوهام والخرافات التي غلت عقول الاوربيين ولذلك لم يستنكف العرب من اقتباس علوم اليونان والرومان ومن اقتفاء خطتهم في البناء وانشاء شكل جديد لهُ وهو المعروف بالبناء العربي ولعلهم استنبطوهُ استنباطاً او اشتقوهُ من البناء الهندي والبزنطي (الرومي) ومهما يكن من اصل البناء العربي فلا مشاحة في ان الاوربيين اقتبسوهُ منهم وانشأوا منهُ البناء القوطي الذي شاع في اوربا في العصور الوسطى وما بعدها الى الآن وبهِ بنيت اكثر كنائسهم واليهِ والى ما بقي من آثار اليونان والرومان مرجع النهضة الحديثة في فن البناء والى ما بقي من تماثيلهم ورواياتهم التمثيلية مرجع هذه النهضة في النقش والتمثيل. اما التصوير والغناء فبقي حبلها

متصلاً بعض الاتصال ولم يبلغ انحطاطهما انحطاط بقيّة الفنون وقد كان للتماثيل والنقوش القديمة يدٌ في ارتقاء فن التصوير ثانيةً

فكلُّ ارتقاء الاوربيين في الفنون حديث العهد لا يتجاوز تاريخهُ خمس مئة عام . وكل ما رأيناهُ في البندقيّة وميلان وجنيفا وباريس ولندن وغيرها من المدن الاوربيّة من المباني الفخيمة وما فيها من الصور والتماثيل حديث لايتجاوز هذا التاريخ. الاّ ان الفنون ليست مقياس العمران ولا هي متصلة بعضها ببعض فقد تتقن الامة فنًّا وتهمل آخر كالمغول الذين ابقوا من مبانيهم في بلاد الهند ما لا مثيل لهُ في المسكونة حتى لقد اجمع كبار المنتقدين على ان تلك المباني اجمل وابدع ما بناهُ البشر في كل زمان ومكان . وقد رأينا امثلتها في المعرض الهندي ببلاد الانكليز (بسوث كنسنتن) بعد ان رأينا امثلة اشهر مباني الارض في باريس ولندن واكسفرد وكنا نحسب ان حبنا للشرق أرانا اياها كذلك حتى قرأنا الحكم المذكور آنفًا في مقالة للسيو غستاف له بون الكاتب الفرنسوي الشهير . ومما نؤثرهُ عنهُ ان الرومان فاقوا امم الارض في النظام العسكري والسياسي والقضائي ولكنهم لم يبتكروا شيئًا من الفنون . واليونان فاقوا امم الارض في الشعر وفنون الادب قبل ان اتقنوا صناعة البناء والنقش . والمصريين فاقوا امم الارض في البناء ولكنهم لم يتفوقوا في التصوير ولا في فنون الادب . والهنود بلغوا الطبقة العليا في فن البناء وفاقوا امم الارض في الفلسفة ولكنهم كانوا دون اليونان في عمل التماثيل ولم يفقهوا شيئًا من العلوم الطبيعيّة

فيرى الناقد البصير ان الارتقاء الاوروبي الذي اشرنا اليهِ في صدر هذه المقالة اساسهُ العلوم الرياضيّة والطبيعيّة كعلم الهندسة والكيمياء والنبات والحيوان والطبيعيات والميكانيكيات . وهذه العلوم لاح فجرها في عصر اليونان وارتقت في ايامهم وايام البطالسة والقياصرة ثم حجبها الظلام الدامس كما حجب غيرها من معارف البشر مدة العصور الوسطى وانما عاشت في ممالك العرب وايعت ثم انحطت بانحطاطها واُهمل بشأنها وعمّ الجهل بها ممالك الشرق والغرب ولم ينفض عنها غبار النسيان في ممالك اوربا الاّ منذ عهد حديث جدًّا ولم يرحب بها الاوربيون حينئذٍ بل اعرضوا عنها ونكلوا بدعاتها تنكيلاً كما ابنّاهُ في فصول مختلفة موضوعها "جهاد العلماء" . واستعاضوا عنها باحكام لها هيئة العلم وهي بريئة منهُ فألهوا بها الناس زمانًا طويلاً فانهم استعاضوا عن العلوم الحسابيّة والرياضيّة بخزعبلات نسبوها الى خواص الاعداد والحروف مما نرى آثارهُ

عندنا الى هذا اليوم وباحكام لا يثبتها عقل ولا يؤيدها نقل . وحوّلوا علم الكيمياء الذي هو انفع العلوم الطبيعيّة الى طلاسم وشعوذات سحريّة واضاعوا الوقت في البحث عن الاكسير وفي اثبات وجوده من التوراة والانجيل حتى ان احد كتّابهم ادّعى اثبات الاكسير باكثر من مئة آية استخرجها من التوراة وذلك منذ مئة واثنتين واربعين سنة فقط وكأنهُ لم يخطر لهم ان يحققوا المسائل العلميّة او ينفوها الاّ بالآيات الكتابيّة والاحاديث الدينيّة. مثال ذلك ان العالم بتشر بقي مصرًّا على وجود الاكسير وعلى انهُ كان معروفًا عند القدماء بعد ان بزغت شمس المعارف الحديثة فلم يرَ مناظروهُ دليلاً ينفون بهِ ذلك الاّ قولهم " ان الملك سليمان قد وُهِب الحكمة الارضيّة والسمويّة كما يقول الكتاب وكان مع ذلك لا يعرف الاكسير بدليل انهُ ارسل سفنهُ لتجلب الذهب من اوفير وضرب الضرائب على شعبهِ ليجمع الذهب منهم ولو كان عارفًا بالاكسير لما فعل ذلك فالاكسير غير موجود". فاهمل بتشر مباحثهُ العلميّة وجعل يقدّر قيمة ما انفقهُ الملك سليمان على الهيكل والقصور التي بناها لكي يبين ان الذهب الذي انفقهُ كان اكثر من الذهب الذي كان يمكن ان يؤتى بهِ من اوفير او يجمع من بني اسرائيل قاصدًا ان يثبت ان الاكسير كان معروفًا في ايامهِ وانهُ صنع بهِ بقيّة الذهب الذي انفقهُ

وقد بلغ من تقيد العقول بقيود الاوهام أن صار اوسعها ادراكًا واميلها الى الحريّة — كعقل الفيلسوف فرنسيس باكون صاحب الفضل الاول في ارتقاء العلوم الحديثة — لا يخطو خطوةً من غير قيد حتى يخطو خطوةً اخرى بقيود واغلال. مثال ذلك ان هذا الفيلسوف الكبير الذي رأى "ان الفلسفة العقليّة قد نسدت بما تطرق اليها من الخرافات والاعتقادات" ولام الذين "حاولوا ان يبنوا الفلسفة الطبيعيّة على سفر التكوين وسفر ايوب" وقال ان ذلك "خلط مضرٌّ وفساد في العقائد". حاول ان يثبت من سفر ايوب كرويّة الارض وثبوت الكواكب وتسطح الارض من القطبين وذلك بنفس الآيات التي اتخذها غيرهُ دليلاً على ثبوت الارض وانبساطها ودوران الكواكب حولها

وفي سنة ١٦٢٤ اجتمع بعض الكيماويين في باريس وحاولوا الجري على طريقة كيماويي العرب طريقة البحث والتجربة فمنعهم مجلس نوّاب فرنسا من ذلك وتوعدهم بالقتل . وفي سنة ١٦٥٧ اجتمعت جمعيّة الكيماويين في فلورنسا اجتماعها الاول برئاسة البرنس ليوبولد دي مديشي وغرضها فك قيود التقليد والاعتماد على البحث والتجربة وكان من مواضيع بحثها الرياضيات والتاريخ الطبيعي والحرارة والنور والكهربائيّة فعدّها

ابناء ذلك العصر حصناً للكفر وشددوا عليها الحصار فاستسلمت للقوة وانحل عقدها بعد عشر سنوات واضطرّ بورلي الرياضي الذي اغناها بمباحثه الرياضيّة ان يعيش فقيراً ذليلاً وريدي الطبيعي الذي رفع منارها بمباحثه في التاريخ الطبيعي ان يفتخر بخلاصه من العذاب الذي عذب به

وفي سنة ١٧١٥ كان رجل يحفر بئراً قديمة فاختنق فحكمت اللجنة الطبيّة في مدرسة بينا انهُ اختنق بسبب الغازات السامة لا ان الشيطان خنقهُ فاعترض الاستاذ لوشر احد اساتذة مدرسة وتبرج على هذا الحكم وقال "انهُ من المفاسد التي تبعد نعم الله عنا ان لم نحترس منها"

ومن اغرب ما يذكر في تاريخ المعارف الطبيعيّة ان نار اضطادها بقيت متأججة الى اواسط القرن التاسع عشر ولم يخمد سعيرها الاّ منذ سنين قليلة وذلك في فرنسا بل في قلب مدينة باريس فان احد كبرائها اتهم الاستاذ ساي احد اساتذة مدرسة الطب بانهُ منكر لوجود النفس والقى تبعة ذلك على المسيو ديرى وزير المعارف حينئذٍ وبنى تهمتهُ على كلمة قالها الاستاذ ساي في احدى خطبهِ . ثم ظهر بعد البحث ان الجاسوس الذي سمع تلك الكلمة ونقلها اخطأ سمعها فان الاستاذ ساي ينفي كون الطب صناعة وكان يخطب في ذلك فسمع الجاسوس كلمة صناعة (art) وظنها كلمة نفس (âme) ولم يشر الاستاذ ساي في كل خطبهِ الى النفس ولا كان سياق الكلام يقتضي الاشارة اليها

وفي سنة ١٨٦٤ قام جماعة من كبار الانكليز واعترضوا على تعليم العلوم الطبيعيّة زاعمين انها تؤول الى الجحود وطلبوا ان تقام المعاثر في سبيلها فاستهجن العلماء طلبهم واحتقروهُ وسفهوهُ في الجرائد . وما لنا ولابعاد الشواهد والرجوع ثلاثين او اربعين سنة فقد سمعنا هذا الصيف في قلب مدينة لندن خطباً دينيّة مفادها "ان العلوم الطبيعيّة تدعو الى الكفر وان اصحابها من الجهلاء ان لم يكونوا من الاشرار ونحن لا نسيء الظن بهؤلاء الخطباء وغيرهم من الذين قاوموا العلوم الطبيعيّة او لم يزالوا يقاومونها بل نعتقد انهم يفعلون ذلك عن غيرة حقيقيّة واخلاص تام ونسلم ايضاً ان بعض العلماء الطبيعيين كفر بجميع العقائد الدينيّة وانهُ لا بدّ من ان تكون العقائد الدينيّة والقواعد الادبيّة اساساً للتربية والتهذيب . ولكن لا يسعنا الاّ المجاهرة بالحق وان الارتقاء العظيم الذي ارتقتهُ الممالك الاوربيّة في الفلاحة والملاحة والصناعة على اختلاف انواعها وكل الاختراعات والاكتشافات الحديثة التي سهلت الاعمال واطالت الاعمار وكثرت

الخيرات من نتائج العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة وان هذه العلوم كانت مجهولة في اوربا كلها في العصور الوسطى وقد بقيت ممتهنة مضطهدة الى اوائل القرن التاسع عشر

وهنا يقف الشرقي وقد ابرقت اسرتهُ ولاح صبح الرجاء على وجههِ لانهُ يقول في نفسهِ ان كانت البلاد الاوربيَّة قد بلغت هذا المبلغ من الارتقاء في سنين قليلة مع وجود كل ما يحبط المساعي فيها فعلى مَ لا نقفو خطواتها ونبلغ مداها في سنين قليلة وليس امامنا ما يعيقنا عن السعي او يصدنا عن النجاح . نعم ان بلادنا كانت في ليل دامس منذ سنين قليلة ولكن

لكلّ ليلٍ صباحٌ نستضيءُ بهِ فلا تدوم علينا ظلمة الغسقِ

كما قال المرحوم اليازجيُّ . ولسنا نيأس من الحياة ما دام فينا رمقٌ ولا من النجاح ما دام فينا عزيمة . وعلى هذا الامل قد انشأنا المقتطف منذ ثماني عشرة سنة وواصلنا الليل بالنهار درساً وبحثاً لكي نقتبس كنوز المعارف الغربيَّة ونبثها في جميع الديار الشرقية وقد رأينا من ثمار هذا العمل ما يقوي املنا بالنجاح لاسيما وان نصراء المعارف قد صاروا كثاراً والحمد لله وستبلغ البلاد بجدهم وهمتهم الغرض الذي تسعى اليهِ

مجمع العلوم الطبيعية بسويسرا

سويسرا هذهِ الجمهورية الصغيرة التي لا يبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين من النفوس يحق لها ان تفتخر على ممالك الشرق اجمع بكل ما من شأنهِ ترقية البلاد والعباد . ومن مفاخرها الكثيرة مجمع العلوم الطبيعية الذي أُنشئ فيها منذ ستة وسبعين عاماً وانتظم فيهِ رجال اشتهروا بالعلم والعرفان في المسكونة كلها حتى اذا عدَّ فطاحل علماء اوربا كان لسويسرا النصيب الاوفر منهم بالنسبة الى عدد سكانها . وقد اجتمع اعضاء هذا المجمع في مدينة لوسرن احدى مدائن سويسرا في الرابع من شهر ايلول (سبتمبر) اجتماعهم السنوي السادس والسبعين وخطب رئيسهُ الاستاذ رنتيه خطبة جيولوجيَّة وتلاهُ الاستاذ بكته الشهير وخطب في تأثير الحرارة في الظواهر الحيويَّة . ومما قالهُ في خطبتهِ ان العلماء والفلاسفة لم يهتدوا حتى الآن الى تعريف الحياة لانهم لم يستطيعوا معرفة حقيقتها ولا سبيل لهم الى هذه المعرفة الاَّ بالبحث في ظواهرها . ومن الاساليب المهدة لذلك البحث في تنوُّع الظواهر الحيويَّة بتنوُّع الوسط الذي يكون الحيوان فيهِ تبعاً لاحوال غير